من أخلاق المؤمنين:

الإيثـــار

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

obeikandl.com

الإيثـــار

الإيثار خلق من الأخلاق التى ربى الإسلام أبناءه عليها. فعاشوا أخوة متحابين يؤثر كل منهم على نفسه كما وصف الله سبحانه وتعالى الأنصار بقولـه:{وَيُـــؤْثِرُونَ عَلَـــى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـــونَ}[1]. وهو خلقَ يَدل على نفس صافية. وقلب موصول بالله تعالَى. واثق أن ما عند الله خير وأبقى. وأنه يعطى القليل ويأخذ الكثير. والكثير فى جنة أكلها دائم وظلها ممدود. بل يأخذ أسمى من ذلك وأعلى أنه ينال رضا الله سبحانه وتعالى.

الإيثار هو تقديم الغير على نفس وحظوظها الدنيوية. وذلك انتصار على الشيطان الذى يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلا. وانتصار على النفس الأمارة بالسوء ويسمو بها إلى الدرجات العلى. وتخلص من الأثرة البغيضة وحب الذات التى تريد إرواء الشهوات وإشباع الرغبات. ولا يكترث بعد ذلك أن يبيت غيره على الطوى كما قال القائل: (إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر)[2] ولكن صفة الإيثار تدفع إلى مشاركة الناس أفراحهم و أطراحهم كما قال القائل:

فـــلا نزلـــت علـــى ولا بـــأرض ::: سحائب لـــيس تنـــتظم الـــبلادا

إنه الإيمان الذى يخلق الإنسان خلقاً جديداً. وإنها العقيدة التى تملأ القلب بالأخوة الحقة...

وإذا راضت العقيدة قلبا فمن الصعب أن يكون أناني، ويؤثرون على أنفسهم وفى القرآن الكريم أمثلة رائعة لأناس تحلوا بخلق. الإيثار فمن ذلك ما جاء فى قولـه تعالى:{وَيُطْعِمُـــونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَـــزَاءً وَلاَ شُكُوراً}... فانظر إلى هذا الإيثار! فقد ورد أن أسرة على بن أبى طالب كانوا فى أشد الحاجة إلى الطعام - فقد كانوا صائمين - ووضعوا أمامهم قرصا من الشعير. فلما أذن المغرب أتاهم مسكين وطلب الطعام فأعطوه ما أمامهم. وأفطروا على الماء وفعلوا مثل ذلك فى اليوم الثانى مع يتيم. وفى اليوم الثالث مع أسير ثم لم يمنوا بل لم يطلبوا ممن أعطوهم جزاء ولا شكورا [3].

---

(١) سورة الحشر. الآية رقم (٩).

(٢) أى المطر.

(٣) من الصور الرائعة فى القصص القرآنى والتى تبين مدى إيثار السابقين ترى قول الله تعالى حاكيا على لسان موسى عليه السلام قصته مع الخضر لما ركب السفينة وخرقها:{قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْـــتَ

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وهى زوج رسول الله ﷺ وبنت أبى بكر الصديق رضي الله عنه - سألها مسكين شيئا وهى صائمة. وكان عندها رغيف واحد كان معداً لتفطر عليه. فقالت لخادمتها: أعطيه إياه ففعلت. وما كان الله تعالى ليتركها بدون طعام تفطر عليه وهى التى آثرت على نفسها. فأتاها إفطارها هدية عبارة عن شاه بكفنها[1]. فقالت عائشة لفتاتها: كلى من هذا فهذا خير من قرصك.

وذكر صاحب كتاب إحياء علوم الدين أن عائشة رضى الله عنها جاءها عطاؤها من الغنيمة والفيء - وكان ذلك مائة وثمانين ألف درهم - فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس. فلما أمست وكانت صائمة دعت بفطورها فكان خبزا وزيتا. وقالت لها الجارية: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى بدرهم لحما لنفطر عليه؟ فقالت أم المؤمنين: لو ذكرتني لفعلت - ومعنى ذلك أنها نسيت نفسها والدراهم أمامها بالألوف... إنه خلق الإيثار. وكفى بذلك الخلق شرفا يدل على حسن الثقة بالله تعالى.

وفى تفسير القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام: إذهب بهذا إلى أبى عبيدة بن الجراح وقل له: إن عمر يقول لك: اجعل هذا فى حوائجك. ثم أمر الغلام أن يتلكأ فى بيت أبى عبيدة حتى ينظر ماذا يفعل بهذا المال. فلما وصل الغلام وأعطى أبا عبيدة المال قال أبو عبيدة: وصله الله ورحمه. ثم قال: تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان. وبهذه الخمسة إلى فلان وقسمها كلها. ورجع الغلام وقص ذلك على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوجده قد أعد مثلها وأمره أن يذهب إلى معاذ بن جبل. وقال له اذهب إلى معاذ وقل له: يقول لك عمر بن

شيئاً إمْراً}. ونلحظ أن موسى عليه السلام كان راكب فى السفينة ولو غرقت السفينة لغرق مع أهلها. ولو أنه قال للخضر:"أخرقتها لتغرقها" يقصد نفسه وأصحاب السفينة لم يكن ذلك عيبا ولا خطأ لأنه يطلب سلامته وسلامة الآخرين. لكننا نجده ينسى نفسه تماما وينسى صاحبه الخضر ولا يهتم إلا بمصلحة أصحاب السفينة الفقراء المساكين فقال{لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا}.

أى إيثار هذا الذى ينسى به المرء ذاته ومصالحه الشخصية ولايرى سوى مصالح الآخرين... نرى فى القرآن أيضا قول النملة لأخواتها حين هم نبى الله سليمان وجنوده العبور على جحورهم قالت:{يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}. فهذه النملة لم تهتم بمصالحها وتقول كما يقول الناس اليوم نفسى نفسى بل اهتمت بمصالح أخواتها النمل فى وقت الشدة والبأس... فهل يتعلم المسلمون أدب الإيثار ويجعلوه واقعا ملموسا فى حياتهم حتى ينعموا ويغنموا ويسودوا.

(١) ومعنى كفن الشاة أن العرب كانوا يذبحون الشاة ويسلخونها ويغطونها بعجين القمح ثم توضع فى التنور حتى تنضج ويختلط دسمها بالعجين فيصير طعاما جيدا.

الخطاب اجعل ذلك فى بعض حوائجك. وتلكأ فى البيت ساعة. وفعل معاذ ما فعله أبو عبيدة من توزيع المبلغ على الفقراء والمحتاجين. غير أن امرأة معاذ قالت له وقد أوشك المال على النفاذ: نحن والله مساكين فأعطانا.. وكان قد بقى ديناران من الدنانير الأربعمائة فأعطاها لها.

وهذا ذو النورين [1] عثمان بن عفان رضى الله عنه أتته تجارته وكان المسلمون فى ضيق. وجاء التجار ليشتروا البضائع التى جاءت بها قافلة عثمان وقالوا له: نربحك الدرهم درهمين. فقال: عندي من أعطاني أكثر من هذا. فقالوا: نربحك الدرهم ثلاثة. فقال لهم نفس العبارة: عندي من أعطاني أكثر من هذا. فصاروا يزيدون له فى الربح وهو يرفض فقالوا له: من أعطاك أكثر مما نعطيك وليس فى المدينة تجار غيرنا؟! فقال لهم: أعطاني ربى بكل درهم عشرا فالحسنة بعشر أمثالها أشهدكم أن كل ما ترون من العير والتجارة صدقة على فقراء المسلمين.

أليس هذا الخلق الندى (خلق الإيثار) هو روح الإسلام وهتافه الحاني الذي يملأ قلوب أتباعه على لسان نبيه رسول الله ﷺ حيث يقول: «**إن الله اختار لكم الإسلام دينا فزينوه بحسن الخلق والسخاء. فإنه لا يكمل إلا بهما**» [2]. وقال رسول الله ﷺ: «**السخي قريب من الله. قريب من الجنة. قريب من الناس. بعيد عن النار... والبخيل بعيد عن النار. بعيد عن الجنة. بعيد عن الناس. قريب من النار... ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل**» [3].

انظر إلى من حولك من جيران وزملاء وغيرهم ترى شبح الأثرة [4] وحب النفس مسيطرا على الجميع - إلا من عصم الله تعالى - وتجد التزاحم على السلع التي يشاع أن ثمنها سوف يرتفع. وقد تجد فى هؤلاء المتزاحمين من ليس فى حاجة إليها أو عنده ما يكفيه إلى أن تتوفر السلعة بعد ذلك. وترى الأنانية تزكم الأنوف برائحتها التى تنبعث من قلب غارق فى مستنقع كدر وقذر... إن الأثرة تولد الطمع والجشع والخيانة وحب

(١) لقب عثمان بنعفان بذى النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات رسول الله ﷺ.. السيدة رقية. والسيدة / أم كلثوم وقال رسول الله بعد وفاتهما: (لو كان عندنا ثالثة لزوجتكها) رضى الله عنه وأرضاه.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) الأثرة عكس الإيثار وهى حب النفس وتفضيلها على الغير.

المصلحة. وتدل على إقفار القلب من الإيمان والسماحة - وإذا ما انتشر ذلك فى قوم إلا تفرقوا وهزموا وذلوا. ونستلهم التاريخ ليقدم لنا نموذجا يؤيد ما نقول... فقد هزم أصحاب طليحة الأسدى - الذى ادعى النبوة - أمام عدد أقل من المسلمين. فتعجب طليحة وسأل أصحابه. فقالوا له: إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله. وإنا لنلقى أقواما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه - فكان ذلك شهادة للمسلمين وما يشيع بينهم من الحب والإيثار. وشهادة على أعدائهم وما يشيع بينهم من الأثرة وحب النفس[1].

وإن تعجب فأعجب أن يبلغ الإيثار حدا يفوق الخيال. فهذا إنسان لا يؤثر إنسانا على نفسه. ولكنه يؤثر حيوانا باعتباره روحا خلقها الله تعالى ويعطيه طعامه ويصير هو ويبيت على الجوع... هذا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب - وكان لكرمه يلقب بأكرم الناس - خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه. إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط - البستان الذى فيه الغلام - كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام برغيف فأكله. ثم رمى إليه الرغيف الثانى والثالث فأكلهما فقد كان الكلب جائعا. وعبدالله بن جعفر ينظر فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ فقال: ما رأيت ثلاثة أرغفة: رغيف للفطور وآخر للغداء وثالث للعشاء. فقال فَلِمَ آثرت هذا الكلب بقوت يومك؟ فقال: هذه أرض ليس فيها كلاب. فلما رأيت هذا الكلب علمت أنه أتى من مسافة بعيدة جدا. فكرهت أن أشبع وأترك هذا الكلب جائعا. فقال: فما أنت بصانع اليوم وقد بقيت بلا قوت؟ فقال: أطوى يومى هذا وأصبر على الجوع. فقال عبدالله: يلومني الناس على السخاء! إن هذا الغلام لأسخى منى. ثم اشترى الغلام والحائط وأعتقه وملكه الحائط.

إن الحديث عن الإيثار يحلو ويحلو ويطول ويطول إلى أن يصل إلى ضرب من الإعجاز. لأن الإسلام حلق به إلى القمم العالية وجعله يمتزج بالشعور. بحيث أنه حينما يصدر عن صاحبه يصدر عن طبيعة جياشة وقلب عامر بالثقة فيما عند الله وأن الصدقة لا تنقص المال[2]. فالإيثار ليس نوعاً من البله كما يدعى بعض الماديين الذين أقفرت قلوبهم من القيم النبيلة ومنها الإيثار. لقد بلغ الإيثار عند المسلمين الأولين الذين تربوا فى

---

(١) وفى هذا الموقف يصدق قول القائل: (والفضل ما شهدت به الأعداء).

(٢) جاء هذا المعنى فى حديث شريف رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله قال: ((ما نقصت صدقة من مال. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)).

مدرسة الرسول ﷺ قمة شاهقة تتطاول الأبصار وتشرئب الأعناق إلى أعلاها. ولكن أنى لها ذلك؟... فى معركة اليرموك[1] سقط بعض المقاتلين جرحى. وكانت جراحهم نافذة وبلغ بهم نزيف الدم مبلغا كبيرا. ونال منهم الإعياء والتعب واحتاجوا إلى بعض قطرات يرطبون بها حلوقهم - وكان من بين هؤلاء عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه - وتقدم إليه قريب له بكوب من ماء يطفئ ظمأه ويروى به غلته. فهل أخذه منه وشربه - وهو فى الحقيقة فى حاجة شديدة إليه؟ لا ولكنه قال له: اسق أخى هذا الجريح الذى بجواري فلعله يكون أشد احتياجا منى إلى الماء فذهب إلى الثانى فقال مثل ما قال عكرمة: اسق أخى هذا الجريح. وصار الكوب ينتقل من جريح إلى جريح حتى فاضت نفوسهم إلى بارئها... هذه قصة تروى للدنيا كيف خلق الإسلام من العرب أمة كتبت فى تاريخ الأخلاق أنصع الصفحات وأضوأ السطور كيف لا وقد تعلموا ذلك نظريا من القرآن، وعمليا من سيرة رسول الله ﷺ وقد كانوا قبل أن يشرفوا بالإسلام يعيشون على السلب والنهب والاقتتال فى سبيل الشيء التافه! ألم تستمر حرب البسوس أربعين سنة بسبب قبضة من حشائش الأرض أخذتها ناقة من أرض ليست ملكا لصاحبها وعد صاحب المرعى أن هذا اعتداء على كرامته ورمى الناقة فى ضرعها. وغضب صاحب الناقة وقتل قاتل الناقة. وهكذا عاشت هذه الحرب الذي شاب فيها الصغير وفني فيها الكبير بسبب قبضة من حشيش الأرض!!

هذا هو الإسلام وهذا هو أثره فى صنع الحياة الأفضل. الإسلام الذي يريد له العلمانيون[2] أن يظل حبيسا تحت قباب المساجد وداخل تجاويف المحاريب دون أن يكون له أثر فى الرقى بالحياة والإحياء. ودارت الأيام دورتها وتغيرت الأحوال وحاد الخلف عن طريق السلف "طريق الإيثار " الى طرق أخرى متشعبة من الأنانية والجشع

(١) حدثت معركة اليرموك سنة خمس عشرة من الهجرة. وكانت فى شهر رجب. وكانت بين المسلمين. - وعددهم اربعة وعشرين ألفا وقادهم أبو عبيدة - وبين الروم - وكان عددهم عشرين ومائة ألف - وقتل من المسلمين ثلاثة آلاف حتى جاء نصرالله. وورد أن هرقل قال لجنوده: لم انهزمتم؟ قالوا لأننا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام وننقض العهد... ويقوم المسلمون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويتناصحون بينهم. وقيل إن أول من قتل من المسلمين فى هذه الواقعة رجل جاء إلى أبى عبيدة وقال له: لقد تهيأت لأمرى فهل لك إلى رسول الله من حاجة؟ قال أبو عبيدة: تقرئه منى السلام وتقول له إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا - بتصريف من كتاب البداية والنهاية.

(٢) العلمانية مصطلح فكرى حديث معناه فصل الدين عن الحياة وقصره فقط فى دور العبادة.

وحب الذات فاقتتلوا وتصارعوا. ونهب المال العام والخاص واخذ بغير حقه. وكل ذلك لأننا جعلنا أخلاق الإسلام وراء ظهورنا. وصار الهدف هو الثراء مشروعا كان أو غير مشروع وصرنا نسمع من يقول: " هبر هذه الهبرة أو خطف هذه الخطفة "! وما درى هذا الإنسان أنه مسؤول عن الفتيل والقطمير. والذرة وما دونها قال تعالى:{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}[1]. كان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه فخط خطا مستقيما وحول هذا الخط خط خطوطا أخرى متعرجة ثم قال: «هذا – وأشار إلى الخط المستقيم – صراط الله مستقيما» ثم قال: وهذه الخطوط ليس منها خط إلا وعليه شيطان يدعوا إليه. ثم قرأ قوله تعالى:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}[2].

يحكى أنه كان فى بنى إسرائيل قحط شديد. وجلست امرأة تأكل لقمة كانت عندها فجاءها سائل وقال لها: لقمة لله. فأخرجتها من فمها وأعطتها له وخرجت لتحتطب. وكان لها ابن صغير فوضعته إلى جوارها وجعلت تجمع الحطب. فجاء ذئب وحمل الصبي فصاح وسمعت الأم صيحة ابنها فجرت وراء الذئب. فبعث الله جبريل فأنقذ الطفل من فم الذئب ودفعه إلى أمه وقال لها: يا أمة الله لقمة بلقمة... أرضيت؟

أعظم ألوان الإيثار

ومن أعظم ألوان الإيثار تقديم النفس وبذل الدم والتضحية بالروح فى سبيل العقيدة. فما أرخص الحياة الدنيا إذا قيست بالحياة الآخرة! ولقد قيل بحق: لو أن الدنيا جوهرة تفنى والآخرة خزفه تبقى لكان على العاقل أن يقدم مايبقى على ما يفنى. فكيف والأمر بالعكس فالدنيا خزفة فانية والآخرة جوهرة باقية... فالتضحية بالنفس فى سبيل الدين وفى وقاية الرسول ﷺ أسمى أنواع الإيثار.

يجود بالنفس إن ضن البخيل ::: والجود بالنفس أسمى أنواع الإيثار

وهل بلغك نبأ أبى طلحة الأنصاري؟ وكيف كان يقف أمام رسول الله ﷺ ليكون بمثابة درع بشرى يؤثر رسول الله على نفسه. ويقول له: يا رسول الله لا تشرف حتى لا

(١) سورة الزلزلة. الآيتان رقم (٧، ٨).
(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (١٥٣).

يصيبك سهم. ثغري دون ثغرك فداء. وصدري دون صدرك وقاء[1]... ثم هو الذي أخذ ضيف رسول الله ﷺ حينما لم يجد رسول الله ما يقرى به هذا الضيف. فقال لأصحابه: من يضيف هذا الليلة؟ فقام أبو طلحة وقال: أنا يارسول الله. وذهب به إلى بيته وسأل امرأته أن تقدم ما عندها لضيف رسول الله ﷺ. فأخبرته أنه ليس عندها إلا طعام العيال. فاتفقا علي أن تعلل الأم أطفالها حتي يناموا ثم تقدم الطعام للضيف ويجلسان معه. وتظهر كأنها تقوم لتصلح المصباح ولكنها تطفئه. ثم يضعان أيديهما مع يد الضيف ولكنهما لا يأكلان حتى يأكل الضيف ويشبع. ونفذت ذلك فعلا وأكل ضيف رسول الله صلي الله عليه وسلم وبات الأب والأم والعيال بدون طعام. وفي الصباح قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأبي طلحة: لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما... وعجب الله تبارك وتعالي هو قبول هذا العمل وحسن المثوبة عليه... فهل فينا من يبلغ به الإيثار إلي هذا الحد ونحن نردد المثل الذي يقول: "إذا احتاج البيت الزيت فلا نعطه للمسجد". والمثل الذي يقول: " أنا وليكن بعدي الطوفان ".

إن تاريخ المسلمين زاخر بالأمثلة الرائعة لهذا الخلق النبيل "خلق الإيثار"... ولنعد إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد كان بودها أن تدفن في حجرتها إلى جوار أبيها الصديق. وزوجها سيد الخلق رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم تكن حجرتها تتسع إلا لثلاثة قبور غير أنها آثرت الفاروق عمر بن الخطاب حين لقي الشهادة وهو واقف في المحراب بين يدي ربه يؤم المسلمين في صلاة الفجر. وطعنه أبو لؤلؤة المجوسي قاتله الله ولعنه. وأرسل الفاروق ابنه إلى عائشة يستأذنها أن يدفن إلي جوار صاحبيه وأوصي ابنه أن يقولها: يقول لك عمر - وحذره أن يقول لها يقول لك: أمير المؤمنين... إنه يقدم نفسه كفرد من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وليس كأمير المؤمنين - وهنا قالت أم المؤمنين: كنت أريد هذا المكان لنفسي فلأوثرنه به. لقد بلغ الإيثار مبلغا عظيما في شخص رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي فضله الله به علي سائر الخلق...

ذكر الإمام الغزالي: أن موسي عليه السلام قال لربه عز وجل: "يا رب أرني بعض

---

(١) حدث هذا فى معركة أحد. وقد جرح فى هذا اليوم رضى الله عنه جروحا كثيرة وشلت إصبعه. وقال عنه رسول الله: (من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبدالله). وقال عنه أبوبكر الصديق: (يوم أحد كان كله لطلحة).

درجات محمد صلي الله عليه وسلم وأمته. فقال: يا موسي إنك لن تطيق ذلك. ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلي جميع خلقي. فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلي منزلة كادت تتلف من أنوارها نفسه ولقربها من الله تعالي. فقال: يا رب بماذا بلغت به إلي هذه الكرامة. قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار يا موسي لايأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من " جنتي حيث يشاء[1].

ونسأل هنا عدة أسئلة ثم نجيب عنها..

س١: هل يجوز للمرء أن يؤثر غيره على نفسه وأولاده بكل ما يملك؟

والجواب: إن ذلك جائز ومأجور صاحبه كما فعل أبو طلحة مع ضيف رسول الله ﷺ ولكن بشرط أن يكون حسن الثقة بالله تعالى فلا يندم بعده حتى لا يحبط عمله وبحيث لا يسأل الناس. فقد قال رسول الله ﷺ لرجل جاء بكل ماله إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال له: «يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيتصدق به ثم يقعد يتكفف النـــاس» - يسألهم[2] ولعل رسول الله ﷺ كان يعلم حاله... أما دليل الجواز فلقد تصدق أبو بكر بكل ماله فى غزوة العسرة. ولما سأله رسول الله: " ماذا تركت لأولادك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله" [3].

س٢ هل هناك إيثار مذموم؟

الجواب: إذا آثر الإنسان المعصية على الطاعة. وآثر الدنيا على الآخرة.. والدليل على ذلك قوله تعالى:{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِـرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقَـى}[4] وقال تعالى:{فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[5]... هذا هو الإيثار المذموم بنص القرآن الكريم. وفى تسميته إيثارا فى نوع من السخرية والذم لأنه يؤثر

---

(١) نقلا عن أخلاق القرآن للشرباصى. الجزء رقم (١) الصفحة رقم (٥٧).

(٢) الحديث رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم. واشترط العلماء كذلك لجواز التصدق بجميع المال أن يكون المتصدق قويا مكتسبا غير مدين. وبعضهم اشترط ألا يكون عنده من يعولهم... قال رسول الله: (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت أو يعول.

(٣) الحديث رواه أبو داود والترمذى وصححه.

(٤) سورة الأعلى. الآيتان رقم (١٦، ١٧).

(٥) سورة النازعات. الآيات أرقام (٣٧، ٣٨، ٣٩)

المذموم علي الممدوح. والإيثار الحق هو ما كان عكس ماذكر. وهناك إيثار مكروه فقط وليس مذموم. ونستدل عليه بقول أحد الصالحين إن استطعت ألا يسبقك أحد إلى مولاك فافعل. ولا تؤثر على مولاك شيئا: ونمثل ذلك بالجلوس فى الصف الأول. فإذا كنت جالسا فى الصف الأول لانتظار الصلاة فلا تؤثر بمكانك أحدا فإن الملائكة تصلى على الصف الأول ثم الذى يليه. والمكان لمن سبق إلا إذا آثرت إنسانا عالما ليكون وراء الإمام مثلا. وأنت لست من أهل الإمامة... وحين التزاحم على الحجر الأسود وقدمت شيخا كبير لا يستطيع أن يصل إليه فآثرته على نفسك باعتبارك قويا تستطيع أن تقبل فيها لشوط الثانى أو الثالث فيكون لك ثواب المؤثرين... ومثل ذلك الشرب من ماء زمزم والصلاة خلف مقام إبراهيم وهكذا. فتلك مواقف يحمد فيها الإيثار لمن لم يستطع ذلك. والله تبارك وتعالى أعلم بالسرائر.

* * * * *

obeikandl.com

من أخـــلاق المؤمنين:

الاستقامـــة

قال أحد الصالحين: رأيت رســـول الله ﷺ فى النوم. فقلت: يا رسول الله: روى عنـــك أنـــك قلت: شيبتني هود وأخواتها. فما الـــذى شـــيبك منها؟ قال النبى ﷺ : قولـــه تعالى: (فاستقم كما أمرت).

الاستقامة

الاستقامة فى معناها تعنى الاعتدال والبعد عن الاعوجاج والانحراف. فنقول مثلا: " فلان مستقيم" بمعنى أن أخلاقه لا تنحرف إلى هنا أو هناك. ويقول إمام الصلاة للمصلين خلفه: " استقيموا يرحمكم الله. إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج ". وعلى ذلك فالإنسان المستقيم هو الذى يسير على هدى الكتاب والسنة ولا ينحرف عنها. ونحن نطلب من الله عز وجل فى اليوم الواحد الهداية إلى الصراط المستقيم سبع عشرة مرة كحد أدنى - ففى سورة الفاتحة:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}.

ولقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تزغ زوغان الثعالب. وقال الإمام ابن تيمية: " الاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين. وهى القيام بين يدى الله على الصدق والوفاء ". ويقول تلميذه ابن القيم: " أعظم الكرامة لزوم الاستقامة ".

روى مسلم فى صحيحه عن سفيان بن عبدالله الثقفى قال: (قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك. فقال ﷺ قل آمنت بالله ثم استقم)... فأنت تجد أن رسول الله ﷺ أمره بالإيمان باعتباره الأساس الذى لايعمل عمل بدونه. ثم أمره بالاستقامة على مقتضى هذا الإيمان والتقيد بقيود أوامره ونواهيه.

فالمؤمن الحق هو الذى يعتقد اعتقادا راسخا يملأ عليه أقطار الأرض وأبعادها بوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته ووحدانيته. وأنه المسيطر المهيمن على هذا الكون كله ناطقه وصامته. ساكنه ومتحركه{وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[1]... وهو لهذا يراقب الله عز وجل ويلتزم بالمنهج الذى شرعه الله لعباده. فلا يميل مع الهوى. ولا ينحرف عن الصراط المستقيم.

وجاءت مادة الاستقامة فى كثير من الآيات القرآنية... ومن ذلك قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [2] - أى إلى الدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ ويقول عز من قائل:{وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى

(١) سورة الأنعام. الآية رقم (٥٩).
(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٢١٣).

صِـــرَاطٍ مُّسْـــتَقِيمٍ} [1] - فإذا اعتصم الإنسان وتمسك بأمر الله سبحانه وتعالى فقد هداه إلى الصراط المستقيم. ولأهمية الاستقامة على الصراط المستقيم قال الشيطان:{لأَقْعُـــدَنَّ لَهُـــمْ صِـــرَاطَكَ الْمُسْـــتَقِيمَ}. [2].. إن الشيطان يقعد لابن آدم على طريق الجهاد فيقول له موسوسا: لمن تترك امرأتك وأولادك الصغار وأمك العجوز ووالدك الشيخ المسن - ولا عائل لهم إلا أنت؟ فمن جبن ورجع فقد وقع فى حبائل الشيطان. ومن استعاذ بالله من وسوسته ومكره فقد أفلح. وحتى لو استشهد فإن الله عز وجل يخلفه فيهم بخير ما يخلف فى عباده الصالحين. وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [3].

وهذه الآيات الكريمات تتحدث عن حالة الاحتضار... فالمؤمنون المستقيمون على شرع الله وعلى سنة رسول الله ﷺ فى هذا الوقت العصيب - تتنزل عليهم الملائكة فتطمئنهم على ما تركوا من خلفهم من ذرية فلا يحزنون. كما تطمئنهم على ما يقدمون عليه من حساب وعقاب فلا يخافون. ويزفون لهم البشرى فى الحياة الدنيا على ألسنة الملائكة قبل أن يخرجوا من الدنيا. ثم البشرى التى لا بشرى تعدلها وهى دخول الجنة التى أعدها الله لهم وزرع أشجارها وأجرى أنهارها بيده عز وجل. وأن لهم فيها ما تشتهى أنفسهم وما يطلبون وما يريدون.

وجاء الأمر بالاستقامة إلى جوار ذلك من الله عز و جل لرسوله ﷺ قال تعالى:{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْـــتَغْفِرُوهُ}[4]... ويطول بنا الحديث لو استعرضنا آيات القرآن الكريم التى تدعوا إلى الاستقامة.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١. ١).

(٢) سورة الأعراف. الآية (١٦).

(٣) سورة فصلت الآيات رقم (٣٠، ٣١، ٣٢).

(٤) سورة فصلت الآية رقم (٦) - ورد أن أحد الصالحين رأى رسول الله فى المنام فقال له: يارسول الله روى عنك أنك قلت: (شيبتنى هود) فما الذى شيبك منها؟ فقال رسول الله: قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت).. سورة هود. الآية رقم (١١٢)... ذكره القشيرى فى رسالته الصفحة رقم ٢٩٩.

أنواع الاستقامة

ومن الممكن أن نقسم الاستقامة إلى ثلاث أنواع هى:

١ - الاستقامة فى العقيدة. ٢ - الاستقامة فى الخلق. ٣ - الاستقامة فى العمل.

أولا: الاستقامة فى العقيدة:

تعنى العقيدة الوسطى بين طرفين مذمومين هما: إنكار الألوهية بالمرة وبين تعددها. فالاستقامة فى العقيدة تعنى الإيمان بوحدانية الله تعالى... فأما الملحدون فهم قوم انطمست بصائرهم فلم تهتد إلى آيات الله الكونية المبثوثة فى ثنايا هذا الكون الفسيح. وعميت أبصارهم عن ملاحظة مظاهر قدرته عز وجل فى خلقه. وإنما شأنهم شأن أسلافهم الذين كانوا يقولون:{إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}[1] وكانوا يقولون: إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر وعلى طريق هؤلاء الملحدين من أهل الجاهلية سار الملحدون من أبناء هذا العصر الذين يقولون: إن هذا العالم نشأ بالصدفة ونقول: كذبتم. قد تصدق مرة واثنتين وثلاثا. أما أن تسير الحياة على نسق لا يتخلف ولا يتبدل ولا يتغير فذلك دليل قدرة الله عز وجل.

وفى كل شيء له آية ::: تدل على أنه الواحد

وحينما تبجح النمرود أن أعطاه الله الملك. وحاج إبراهيم عليه السلام قال له إبراهيم:{فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ}[2]. فبهت الذى كفر وظهرت سخافة كفره وتفكيره. فالشمس التى تشرق بميعاد لا يتخلف لا ثانية ولا أقل من ذلك. والأرض فى حركتها الدائرية. وتغاير الفصول - إلى غير ذلك - لا يمكن أن يتم بطريق الصدفة. ولكنه يتم بقانون ربانى. و بقدرة دونها جميع الخلق من إنس وجن: فالإلحاد إذن أمر مرفوض لأنه بعيد عن الإستقامة.

وتعدد الآلهة طرف مذموم أيضا وباطل. والقرآن الكريم قال:{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا}[3]. لأن الشركاء لابد أن تقع بينهم العداوة والبغضاء فيختل نظام الكون وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة:{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً

(١) سورة المؤمنون الآية رقم ٣٧.
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨.
(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢.

لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّـا يَصِـفُونَ} [1] والاستقامة فى العقيدة تجعل المسلم يعيش حياته كلها لله. لأنه عز وجل واهبها -{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [2] - والاستقامة فى العقيدة لها تبعات ومسئوليات وليست مجرد دعوى يدعيها الإنسان ويلوكها بلسانه. وإنما هى أعمال يقوم بها المؤمن ويترفع عن مغريات الحياة وشهواتها الزائلة - قال تعالى:{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاء وَالْبَـنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَـاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَـوْا عِنـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّـهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [3].

ثانيا: الاستقامة فى الخلق:

تعنى الخلق الحسن بين طرفين مذمومين. ونضرب لذلك مثلا يوضح هذا المعنى فنقول: إذا تعرض شخص إنسان بإساءة ما فإن أمامه ثلاثة احتمالات: إما أن يجبن الإنسان ولا يدافع عن نفسه. وحينئذ يزداد المسيء إساءة ويزداد الجبان ذلة على ذله وهذا أمر مذموم.

أن يغالى فى رد الإساءة فيرد الصاع صاعين وهذا طغيان نهى الله عنه... وهو أيضا أمر مذموم.، الاستقامة وتتمثل فى قوله تعالى:{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِّثْلُهَـا} [4]. ويقول تعالى:{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ} [5] وهذا هو الوسط المحمود.

ويفتح القرآن الكريم أمام الذى يريد أن يأخذ حقه باب العفو والصفح. وكان رسول الله ﷺ قد عزم على أن يثأر لعمه حمزة حينما قتله وحشي بتحريض من هند امرأة أبى سفيان - التى حاولت أكل كبده - فلما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «صبرا يا رب». وترك

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١.
(٢) سورة الأنعام آيتان رقم (١٦٢، ١٦٣).
(٣) سورة آل عمران آيتان رقم (١٤، ١٥).
(٤) سورة الشورى آية رقم(٤٠).
(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٦.

القاتل فأسلم وحسن إسلامه وقتل مسيلمة الكذاب فكان يقول: (قتلت فى جاهليتي خير الناس حمزة عم رسول الله ﷺ. وقتلت فى إسلامي شر الناس مسيلمة الكذاب).

مثال آخر يبين معنى الاستقامة فى الخلق فنقول: أمامك فى إنفاق المال ثلاثة طرق: طريق محمود وطريقان مذمومان. فالطريقان المذمومان يتمثلان فى: البخل والتقتير أو الإسراف والتبذير. والوسط هو الطريق المحمود - قال تعالى:{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}(١). وقال تعالى فى وصف عباد الرحمن:{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (٢).

ثالثا: الاستقامة فى العمل:

هى أيضا طريق وسط بين طريقين مذمومين هما: الإفراط والتفريط. فهؤلاء الذين يغالون ولو فى الأعمال الصالحة ليسوا على طريق الاستقامة ومثلهم أيضا المقصرون فى عبادة ربهم - وإن كان الأولون أفضل من المقصرين.

وفى الحديث الشريف: «جاء ثلاثة إلى بيوت النبى ﷺ يسألون عن عبادته. فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها – أى عدوها قليلة – فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ ولم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل ولا أرقد. وقال الثانى: وأما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء.. ولما علم رسول الله ﷺ قام خطيبا فقال ما معناه: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا. أما والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له. ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء. هذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى» (٣).

وقال فى حديث آخر: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق. إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»... (٤) ذلك لأن الإنسان قد يطيق العبادة شابا قويا يعجز عنها

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٩.
(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٧.
(٣) حديث صحيح.
(٤) معنى الحديث أن الذى يركب دابة ويكثر من ضربها حتى توصله إلى مراده فى وقت قصير ستموت دابته من كثرة ضربه لها ولن يصل هو إلى بغيته والنبى هذا يضرب مثالا للمتشددين ويطالبهم بالوسط والاعتدال.

شيخا مسنا: «وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» [١]: «وإن لبدنك عليك حقا ولربك عليك حقا ولأهلك عليك حقا. فأعطى كل ذى حق حقه» [٢].

لا أريد أن أثبط همم العابدين. وإنما أريد لهم التوسط فى العبادة. وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام من الالتزام بمنهج القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم. ومن المداومة على الأعمال الصالحة والتزام الصراط المستقيم. وإذا فعل المسلمون ذلك واستقاموا على الجدة لفتح لهم ربهم أبواب الرزق ليعيشوا فى الدنيا عيش السعداء. ويعيشوا فى الآخرة عيش الأتقياء المنعمين برضوان الله تعالى ورحمته. - قال عز من قائل: {وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً} [٣].

أسأل الله أن يرزقنا ويرزق جميع المسلمين بالاستقامة على الصراط القويم: آمين.

* * * * *

(١) الحديث رواه البخارى ومسلم.
(٢) جاءت هذه المعانى فى ضمن جملة أحاديث عن رسول الله.
(٣) سورة الجن آية رقم ١٦.

openkandl.com

من أخلاق المؤمنين:

حفظ الأسرار

أسر رجل إلى صديقه حديثا ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

حفظ الأسرار

المحافظة على الأسرار خلق كريم وصفة نبيلة ينبغى أن يتصف بها المسلم وأن يطويها بين جوانحه. فكم من سر إذا أفشى أوقع العداوة والبغضاء بين الناس. وهذا الخلق لا يقدر عليه إلا الأقوياء الأسوياء. و لا أعنى بالقوة هنا القوة العضلية الجسدية ولكن أعنى قوة الإرادة التى تتحمله ولا تبوح به. ذلك أن حمل الأثقال يقدر عليه أصحاب النفوس القوي والنفوس الضعيفة. أما حفظ الأسرار فإن أقوياء النفوس هم المؤهلون لحمله وحدهم.

إن الله حفظ أسرار السموات من أن يتسمعها الشياطين. قال تعالى عن الجن:{فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً} (١) وقال عز من قال{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} وقال تعالى:{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} (٢).

ولقد أوصى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام حين رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له. قال له:{يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (٣). ولأن هذه الرؤيا طيبة فهم يعقوب منها أن الله اجتبى يوسف واصطفاه على إخوته. وفى إفشائها خطر عليه لأن إخوته وهم المرموز لهم فى الرؤيا بالكواكب الأحد عشر سوف يفهمون سرها وسوف يكيدون له بوسوسة الشيطان لهم.

وقد ذكر أهل الكتاب أن يوسف عليه السلام ذكر هذه الرؤيا أمام زوجة أبيه. فذكرتها بدورها إلى إخوته فكادوا له الكيد المعروف من التآمر على قتله أو إلقائه فى الجب وكل ذلك لإفشاء السر (٤)... ولكننا نستبعد ذلك ونقول: ما كان ليوسف عليه السلام أن يخالف نهى أبيه وتحذيره. ولاسيما وقد علل والده هذا النهى بأن الشيطان سوف يدفع

---

(١) سورة الجن آية رقم ٩.
(٢) سورة الصافات آيات أرقام ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.
(٣) سورة يوسف آية رقم ٥.
(٤) نقل ذلك ابن كثير نقلا عن أهل الكتاب.

إخوته إلى الكيد لـه. لكننا نطمئن إلى ما ذكره القرآن الكريم من أن سبب الكيد راجع إلى أنهم ذكروا أن أباهم يفضله عليهم. كما قال تعالى حاكيا عنهم:{إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [1]واقترحوا أن يقتلوه أو أن يلقوه بعيدا فى الصحراء. واستقر رأيهم أن يلقوه فىَ الجبَ - ولو أن هذه المؤامرة سببها إفشاء يوسف لسر الرؤيا لذكره القرآن الكريم وهو أحسن القصص.

وهناك مجالات كثيرة للأسرار وينبغى أن تكون منطقة محرمة لا يقترب منها إنسان ولا يتطفل عليها أحد. ومن أجل ذلك نهى القرآن الكريم عن التجسس والإطلاع على عورات الناس وأسرارهم. قال تعالى:{وَلاَ تَجَسَّسُوا} [2]. ويحسن بنا أن نذكر نماذج من حفظ الأسرار لأناس اتصفوا بهذه الصفة الكريمة. ونماذج أخرى لأناس ضعفت عزائمهم وضاقت صدورهم عن حمل أمان الأسرار فباحوا بها.

من النماذج المشرف لحفظ الأسرار:

(١) حينما مات زوج حفصة بنت عمر رضى الله عنه وانقضت عدتها عرض عمر على أبى بكر الصديق أن يتزوجها. ولكن أبا بكر لم يرد على عمر لا بالقبول ولا بالرفض وظل صامتا. وانصرف عمر وذهب إلى عثمان بن عفان وعرض عليه ابنته فقد انتهت عدتها. وكان عثمان صريحا مع عمر فاعتذر لـه بأنه لا ينوى الزواج الآن. وما هى إلا أيام حتى خطب رسول الله ﷺ حفصة وتزوجها. وأحس أبو بكر أن عمر قد وجد فى نفسه شيئا فقال لعمر: لعلك قد وجدت على حينما لم أرد عليك بشأن حفصة. ذلك لأنى كنت سمعت رسول الله ﷺ يذكرها وما كنت لأفشى سر رسول الله. ولو تركها لتزوجتها. [3]

وأحب أن أقف وقفة قصيرة مع هذا الموقف بشأن زواج حفصة. فعمر رضى الله عنه يعرض ابنته علي أبي بكر وعثمان وليس في ذلك أدني غضاضة ما دام الرجل الذي يعرض عليه رجلا صالحا فيه الكفاءة والإيمان. بعكس ما قد يفعله أبناء عصرنا من أنهم يرون ذلك نقيصة. وحاشى لأصحاب رسول الله ﷺ أن يفعلوا ما يعيبهم... ومن

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٨.
(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٢.
(٣) الحديث رواه البخارى عن عبدالله بن عمر.

قبل عمر عرض الشيخ الكبير على موسى عليه السلام أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج فإن أتم عشرا فمن عنده [1]. ولو كان فى ذلك غضاضة ما فعله. ومن بعده عرض سعيد ابن المسيب ابنته على أحد تلاميذه بعد أن ماتت زوجته... وهكذا يجب أن نتعلم من هؤلاء الأعلام ضاربين بأعرافنا عرض الحائط لأنها لا تتفق مع الإسلام.

ثم انظر إلى موقف أبى بكر رضى الله عنه وكيف أنه حافظ على سر رسول الله ﷺ. لأننا لو فرضنا أن أبا بكر ذكر لعمر أن رسول الله يرغب فى حفصة ثم بدا لرسول الله أنه لا يتزوجها فكيف يكون وقع ذلك على عمر وعلى حفصة؟ وعثمان كان صريحا أيضا مع عمر وأنه ليس مستعدا للزواج... هؤلاء هم صحابة رسول الله الذين تربوا على يديه واتصفوا بكل صفات الكمال البشرى الذى تعلموه منه ﷺ.

(٢) نموذج ثان لحفظ السر لكنه لحدث صغير وليس لرجل كبير كأبى بكر. هذا الحدث هو أنس بن مالك رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ. وذلك أن أنسا كان يلعب مع أترابه من الصبيان ومر عليهم رسول الله ﷺ فسلم عليهم ثم أرسله رسول الله ليقضى له حاجة. فذهب أنس وقضاها لرسول الله ولكنه أبطأ على أمه. ولما سألته عن سبب تأخره أخبرها أن رسول الله ﷺ أرسله فى بعض حوائجه. فسألته عن ذلك فقال: ما كنت لأفشى سر رسول الله. فسعدت بابنها وقالت له: لا تفشى سر رسول الله ﷺ [2].

انظر إلى أنس الصبى وكيف حافظ على سر رسول الله حتى عن أمه. وكيف أمرته أمه أن يظل محافظا عليه... ما أحوج أبناؤنا أن يتعلموا منه وأن يتعودوا على حمل أمانة السر [3].

(٣) كذلك وصى العباس ابنه عبدالله بعده وصايا منها حفظ السر. ذلك أن العباس رأى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم عبدالله ويجلسه مع كبار الصحابة الذين لا يعدوا عبدالله أن يكون صغيراً فى سن حفادتهم. وذلك لأن عمر رأى فيه علما وفقها -

---

(١) ذكر القرآن هذا المعنى فى قوله تعالى:{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} سورة القصص الآية رقم ٢٧.

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه والبخارى أيضا.

(٣) جاء حديث عن رسول الله يؤكد هذا المعنى وهو قوله. (إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك) وقوله أيضا: (إذا حدث الرجل رجلا بحديث ثم التفت هكذا - يريد ألا يراه أحد - فهى أمانة.

وأن الأمر ليس بالسن ولكن بالعلم - وذلك أن رسول الله صلي الله عليه وسلم دعا له وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». واستجاب الله دعوة نبيه صلي الله عليه وسلم لابن عمه فصار يعرف بترجمان القرآن وبالحبر وبالبحر وذلك لغزارة علمه. قال العباس لابنه: يا بني إني أري هذا الرجل - يقصد عمر بن الخطاب - يقدمك علي الأشياخ فاحفظ علي خمسا:

١- لا تفشين له سرا. ٢- ولا تغتابن عنده أحدا.

٣- ولا يجربن عليك كذبا. ٤- ولا تعصين له أمرا.

٥- ولا يطلعن منك على خيانة.

ما أجمل هذه الوصايا الخمس وما أحرانا أن نعلمها أبناءنا.

(٤) ولا ننسى فاطمة الزهراء حينما أسر إليها رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه سيقبض في مرضه هذا فبكت. وأسر إليها أنها من سيدات أهل الجنة فابتسمت. وسألتها عائشة أم المؤمنين عن ذلك فاعتذرت بأنها لا تفشي سر رسول الله صلي الله عليه وسلم. ولم تبح بذلك إلا بعد وفاته[1].

بعض نماذج لأناس أفشوا بعض الأسرار

(١) هذا أبو لبابة رضي الله عنه أرسله النبي صلي الله عليه وسلم إلي بني قريظة اليهود. [2] في أثناء حصار رسول الله لهم. فلما وصل عندهم - وكان حليفا لهم - في الجاهلية قابلوه بالبكاء والنحيب. وسألوه: ماذا يريد رسول الله منهم؟ فأمر يده علي حلقه - يعني أنه سوف يذبحهم جزاء وفاقا لغدرهم وتآمرهم مع الأحزاب ضد رسول الله - ولكن أبا لبابة سرعان ما فطن إلي أنه أفشي سر رسول الله. وذهب من فوره إلي مسجد رسول الله. ﷺ وربط نفسه إلي سارية من سواريه وحلف ألا يحله أحد إلا رسول الله ﷺ.

---

(١) تبين بعد ذلك أن سبب بكاؤها إخبار النبى لها أنه سوف يموت وسبب ضحكها أنها أول من تلحق به من أهل بيته فى الجن - وقد كان ذلك بالفعل... وقد ورد عن على بن أبى طالب قوله بعد أن علم ما حدث بين النبى وابنته فاطمة: (إن النبى ابكى ابنته وأضحكها حتى لايفعل ماختصه الله لنفسه) - يقصد قوله تعالى: وأنه هو أضحك وأبكى سورة النجم الأية رقم (٤٣)... والحديث رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٢) بنو قريظة طائفة من اليهود كانوا يسكنون المدينة. وعقد النبى معهم صلحا لكنهم خانوه وتحالفو مع مشركى مكة فى غزوة الأحزاب. فحاصرهم النبى حتى أجلاهم عن المدينة.

ومكث علي ذلك تسعة أيام حتي كان يغشي عليه من الجهد حتي أنزل الله توبته. وجاء من يبشره بذلك وأراد أن يحل وثاقه ولكنه طلب ألا يحله أحد إلا رسول الله ﷺ؛ فحله رسول الله من الوثاق بيده الشريفة. فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي إذا تاب الله علي. فقال له صلي الله عليه وسلم: «يجزيك الثلث أن تتصدق به»... وفي ذلك نزل قول الله تعالي:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [1]. ومن الأمانات المذكورة في الآية حفظ السر كما قال رسول الله ﷺ: «المجالس أمانة». وفهمت توبة الله على أبي لبابة أن الآية الكريمة صدرت بنداء المؤمنين فلم تنف عنه الإيمان.

(٢) نموذج آخر لحاطب بن أبي بلتعة: الرجل الذي شهد بدراً - فهو من السابقين إلي الإسلام - ولكنه في لحظة ضعف أفشي سر رسول الله ﷺ في فتح مكة... ذلك أن قريشا نقضت صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ فأراد أن يبغتها فدعا وقال: «اللهم خذ العيون والأبصار من قريش». وبدأ رسول الله بحشد كل الطاقات لهذه المعركة الفاصلة لفتح مكة معقل الشرك و الوثنية. وبلد العتاة المستبدين الظالمين الذين أخرجوه هو وأصحابه ظلما وعدوانا إلا أن يقولوا: " ربنا الله ". وأمر رسول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين أن تجهز له متاعه الذي لا بد للمحارب من تجهيزه. ودخل أبو بكر على ابنته وهي تعد لرسول الله متاعه فسألها: أيريد رسول الله سفرا؟ قالت: نعم. فسألها: أين يريد؟ فقالت: لا أدري. ثم أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بالاستعداد للذهاب إلى مكة. ولكن حاطبا كتب رسالة إلي قريش يعلمها بنية رسول الله وأنه قادم لقتالهم. وأعطى هذا الكتاب إلى امرأة من موالي بني هاشم جاءت من مكة إلي المدينة تستعين برسول الله. فأعطاها وأمر من معه من بني هاشم أن يعطوها فأعطوها. ولما همت بالعودة أعطاها حاطب هذا الكتاب لتوصله إلي أهل مكة وأعطاها عشرة دراهم. فجعلت الكتاب في ضفائرها وسارت عائدة إلى مكة. ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان ليترك رسوله وقد أفشى حاطب سره فأخبره رسوله بشأن هذه المرأة والكتاب الذي أرسله معها حاطب. فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وأبا مرثد وقال لهم: «انطلقوا حتي تأتوا روضة خاخ – اسم مكان فإن بها ظعينة معها كتاب لقريش فائتوا به». وانطلق الفرسان الثلاثة وأدركوها فعلا في نفس المكان الذي حدده رسول الله.

---

(١) سورة الأنفال الآية رقم (٢٧).

وطلبوا منها إخراج الكتاب فأنكرت في أول الأمر. فأقسم علي أن معها الكتاب فما كان لرسول الله ﷺ أن يخبر بشيء غير صحيح - وهو الذي لا ينطق عن الهوي - وقال لها إما أن تخرجي الكتاب أو لنجردنك. ولما أيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه قالت: غضوا أبصاركم. وأخرجت الكتاب من عقاص - ضفائر - شعرها. واستدعى رسول الله حاطباً وقال له: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: يا رسول الله: لا تعجل علي. إني كنت امرؤا ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم بمكة. فأحببت إذ فاتني ذلك النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «**صدق لا تقولوا له إلا خيرا**». فقال عمر: يا رسول الله إنه خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني أضرب عنقه. فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «**أليس من أهل بدر. ولعل الله قد اطلع علي أهل بدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم**»... ونزل قوله تعالي في أول سورة الممتحنة:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**}.. [1]. تري لو أن هذا الكتاب قد وصل إلى أهله. ألا يمكن أن يقوموا هم بحركة مباغتة لرسول الله ﷺ قبل أن يتم استعداده للحرب. ويكون ذلك بسبب إفشاء السر؟

(٣) نموذج ثالث لا ثنتين من أمهات المؤمنين أفشتا سر رسول الله صلي الله عليه وسلم فعاتبهما الله وهددهما بالطلاق وأن الله سوف يزوجه خيرا منهما - فهما الخاسرتان إذن - قال تعالي:{**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلآئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ**} [2]... وقصة ذلك أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يحب العسل. وكان عند أم المؤمنين زينب بنت جحش شيء من ذلك. فكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يذهب إلي بيتها ويشرب من العسل. فتواطأت أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا دخل عند واحدة منهما أن تقول

(١) القصة ذكرها البخارى فى صحيحه وكتاب السير.
(٢) سورة التحريم الأيات أرقام ٣، ٤، ٥.

لـه: أكلت مغافير[1] - وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يحب إلا الرائحة الطيبة - فقال النبي: بل شربت عسلا. فقالت كل واحدة لـه: جرست نحلة العرفط [2]. فأسر رسول الله إليهما إلي أنه حرم العسل على نفسه[3].

ولعل المراد بالتحريم هو عدم العودة إلي شرب العسل مرة أخري لا أنه جعله حرما أي لا يباح أكله. وإلا فإن الله قال عن العسل:{يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّـاسِ} [4]. وفي ذلك أمور أحب أن أتوقف عندها قليلا لنستخلص العبرة والعظة. ومن ذلك

١ - دماثة خلق النبي ﷺ وحسن معاشرته لأزواجه رضوان الله عليهم. فقد امتنع عن شرب العسل وهو حلال لـه إرضاء لهن. قال تعالي في أول سورة التحريم:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِـيمٌ}. فلم يكن النبي جباراً عليهن وكيف وهو القائل: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلـي». وفي ذلك تماسك للأسرة وحفظ كيانها.

٢ - مكانة رسول الله صلي الله عليه وسلم عند ربه... فقد أعلم الله نبيه محمدا صلي الله عليه وسلم بما كان من أمر عائشة وحفصة. وبين الله لهما أن عليهما أن يتوبا إلي الله لأن قلب كل منهما قد مال عن الحق{فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} وهذا يستدعي التوبة إرضاء لله وإرضاء لرسوله ﷺ.

٣ - بين القرآن الكريم أن تظاهر المرأتين لا يضر إلا بهما فإن الله بقوته مولاه. وكذلك جبريل عليه السلام. وكذلك صالح المؤمنين. فأين هم من هؤلاء.

٤ - تهديد القرآن الكريم لهما بالطلاق وأن الله سبحانه وتعالي سوف يبدله أزواجا خيـراً مـنهن - ولـيس مـثلهن - وقـد وصـف الله الزوجـات فـي سـورة التحـريم بأنهن:{مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَـاراً...} وكل ذلك يدلك على مكانة رسول الله ﷺ عند ربه وعلي خطورة إفشاء السر.

---

(١) شيء يشبه صمغ لـه طعم حلو غير أن لـه رائحة غير مستحبة.
(٢) أى النحل أكل من ظهر المغافير وهو العرفط فظهرت الرائحة فى العسل.
(٣) ذكره الطبرانى بسند ضعيف ولا شاهد لـه فى الصحيحين.
(٤) سورة النحل آية ٦٩.

من مجالات حفظ الأسرار ما يكون بين الرجل والمرأة في حجرة النوم. فينبغي أن يكون ذلك سرا بينهما فقط. فبعض الشباب قد يتباهي برجولته أمام أصدقائه ويقول فعلت وفعلت. وبعض الشابات قد يتباهين بما فعله معهن الأزواج لتبين أنها محبوبة ومحظية عند زوجها. وما دري هؤلاء وأولئك أنهن وأنهم قد أفشوا سرا كان يجب أن يظل محفوظا. يقول النبي صلي الله عليه وسلم: «إن شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلي امرأته وتفضي هي إليه. ثم ينشر سرها» (١).

إن للبيوت حرمة ولها أسرار. فيجب أن تصان الحرمات وأن تحفظ الأسرار. ومن أجل ذلك نهي الإسلام عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان. قال تعالي:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}... (٢) قد يدخل إنسان بيت صديقه ثم إذا خرج قال: رأيت كذا وكذا. وفي ذلك إفشاء للسر ينبغي أن يترفع عنه المسلم. ومن مجالات حفظ السر أن يحفظ الإنسان سره إذا أحب ألا يطلع عليه سواه. فإذا أفشى سره لأحد فذكر هذا ذلك السر لثالث فاللوم كله على صاحب السر لأنه إذا ضاق صدره عن أن يكتمه فصدر غيره أشد ضيقا. قال الشاعر:

إذا المرء أفشي سره بلسانه ::: ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدرالمرء عن سر نفسه ::: فصدر الذي يستودع السر أضيق (٣)

قد يقع إنسان في معصية ما وقد ستره ربه. فينبغي أن يكون ذلك سرا بينه وبين الغفور الرحيم - يتوب إليه من ذنبه ويتبرأ مما جنته يداه. ولكن البعض يظن أن الإتيان بالمعصية " شطارة وفهلوة " فيهتك ستر ربه عنه ويقول: فعلت كذا وكذا وضحكت علي فلان واستغفلت فلان وفي ذلك مجاهرة بالمعصية والرسول يقول: «كل أمتي معافي إلا المجاهرين». وإذا أراد مع ذلك أن يقلده غيره وأن تشيع الفاحشة فقد وقع تحت طائلة قوله تعالي:{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى.
(٢) سورة النور آية ٢٧.
(٣) وقال آخر:
إذا ما ضاق صدرك عن حديث ::: وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبت من أفشى حديثى ::: وسرى عنده فأنا الملوم.

الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [1]... وإن من المجانة أن يعمل العبد عملا بالليل ثم يصبح قد ستره الله فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه فيصبح ويكشف ستر الله عنه ".

فهذا الذى ارتكب الفاحشة وقد ستره ربه لم يقابل نعمة الله بالشكر. إذ كان من الجائز أن يكشف الله ستره عنه ويفضح أمره بين الناس ولو أرخى على نفسه ألف ستر وستر - ولكنه جحد هذه النعمة - من أجل ذلك كان أهلا لأن لا يغفر الله له... ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى عمل المعصية وأن يكتم الإنسان سر هذه المعصية. ليس ذلك مقصودا ولكننا ندعو الإنسان إذا زلت قدمه وستره الله أن يتوب ولا يذكر هذا الذنب لأحد حتى لا يقلده فيكون قد حمل وزره ووزر من قلده.

روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «**يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه – ستره – عليه. فيقول عملت كذا وكذا. فيقول: نعم. فيقرره ثم يقول: إنى سترت عليك فى الدنيا فأنا أغفر لك اليوم**»... على المسلم أن يستر نفسه وأن يتوب إلى ربه. وإذا حدثته نفسه بشىء ما فعليه ألا يفصح عن ذلك. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «**إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تكلم أو تعمل**».

من مجالات حفظ السر:

أن يطلع الإنسان على أخيه المسلم وهو على معصية، فعليه أن يرشده وينصحه وأن يستر عليه - فربما كان ذلك أفضل من فضيحته. جاء رجل اسمه هزال وذكر لرسول الله ﷺ أنه رأى ماعزا - اسم رجل - يفجر بإمرأة محرمة عليه. فقال له النبى ﷺ : «**يا هزال هلا سترته بثوبك لكان خيرا لك**» [2] وقال ﷺ: «**يا معشر من آمن ولم يدخل الإيمان قلبه.. لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم. فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته**» [3]... وورد أن النبى صلي الله عليه وسلم قال: «**من ستر على مسلم عورة فكأنما استحيا موؤدة**» [4]... وقال صلي الله

---

(١) سورة النور.
(٢)الحديث رواه أبو داود والنسائى.
(٣)الحديث رواه بن حبان فى صحيحه ورواه أبو داود وأبويعلى بإسناد حسن.
(٤)الحيث رواه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد.

عليه وسلم: «من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة». [1] إن من الحزم أن يحتفظ الإنسان بسر نفسه ولا يبوح به حتى لأصدقائه خشية أن تتغير القلوب. قال القائل:

إحـــــذر عـــــدوك مـــــرة ::: واحـــذر صـــديقك ألـــف مـــرة
فلربمـــــا انقلـــــب الصـــــديق ::: فكـــــان أعلـــــم بالمضـــــرة

قال الإمام على رضى الله عنه: "سرك أسيرك. فإذا تكلمت به صرت أسيره". [2]

وإعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال. فحفظ الأموال أيسر من حفظ الأسرار. لأن حفظ الأموال يكون بالأبواب والأقفال وحفظ الأسرار يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وكلما كثر حراس الأموال كان أدعى إلى حفظها. وكلما كثر حراس الأسرار كان أدعى إلى إفشائها. أيها الأخ الكريم... عليك بحفظ أسرارك. وإذا كان عندك سر يخص أمتك فلا تفشيه فإنك تكون قد أسأت إلى الأمة جميعها. واحذر العيون المتلصصة والآذان المتسمعة. واكتم سر أمتك وسر عملك إذا كان الله قد وضعك فى هذا الموضع. وكن حذرا يحفظك الله ويحفظ أمتك معك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * * * *

(١)الحديث بمعناه ذكره الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة.
الحديث رواه أبو داود والنسائى.
الحديث رواه بن حبان فى صحيحه ورواه أبو داود وأبويعلى بإسناد حسن.
الحيث رواه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد.
الحديث بمعناه ذكره الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة.

obeikandl.com

من أخلاق المؤمنين:

الأمانـــة

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُـــولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

obeikandl.com

أداء الأمانـــة

أداء الأمانة لصاحبها صفة لا يقدر على تحملها إلا أصحاب القلوب النقية التقية لمن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى من خيرة خلقه. فلقد عرضت هذه الصفة على السموات وعلوها وشموخها وما فيها من كواكب ومجرات - وهى من الضخامة بمكان لا يعلمه إلا الله عز وجل - فأبين أن يحملنها وأشفقنا أن يخنها فيتعرضن لعقاب الله وجزائه. وكذلك عرضت على الأرض وما فيها من جبال غاية فى الصلابة والقوة فاختارت أن تكون منقادة لله على أن تتحملها. ولقد حملها الإنسان. فمن أداها كما تحملها فهو من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وأما من خانها وجحدها ولم يؤدها كما تحملها فهو الظلوم الجهول. ظلم صاحب الأمانة وهو الجهول كما قال الله:{إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}[1].

وتنوعت تفسيرات المفسرين فى تعريف الأمانة المذكورة فى الآية وذلك بتنوع الأمانة نفسها. فمنهم من قال: إن الأمانة هى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فمن عمل بمقتضاها فلم يخش إلا الله. ولم يعبد إلا هو. ولم يستعن إلا به. ولم يخلع صفات الألوهية إلا عليه فهو الأمين حقا. نعم هو الأمين على ما أودعه الله فى قلبه من الفطرة النقية التى خلقها الله عليها فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه... وأما من أشرك بالله ورائى الناس. فقد عق الفطرة وخان الأمانة واستحق الوصف المذكور فى الآية وهو أنه ظلوم جهول - هكذا بصيغة المبالغة وليس الظالم الجاهل فقط.

ومنهم من قال: إن الأمانة هى العقل فمن حافظ على عقله واستخدمه فى معرفة ربه بنظره فى ملكوت السموات والأرض فعرف أن لهذا الكون ربا هو الذى خلقه وهو الذى سن له القوانين التى يجرى عليها. فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون. وأدرك بعقله مظاهر القدرة القادرة والعظمة الباهرة. فهذا

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان رقم (٧١، ٧٢).

الإنسان هو الأمين حقا... أما من ألغى عقله. واتبع ما ألفى عليه آباءه وقلدهم تقليد القردة. فهذا الإنسان هو الظلوم الجهول فكان عليه أن يعمل عقله. وأن يستمع إلى الأنبياء والمرسلين وهم يأتونه بالآيات الواضحات والمعجزات البينات. وبذلك يكون أميناً حقاً فيعمل لآخرته باعتبارها الحياة الخالدة الباقية فى كنف الله. ويعمل أيضا للدنيا بقدر مقامه فيها وبقدر رغبته فى زيادة الحسنات وتكفير السيئات.

والرأى الذى أطمئن إليه أن الأمانة هى التكاليف الشرعية التى قررها الإسلام وعلمنا إياها رسول الله ﷺ. وبعض هذه التكاليف تتعلق بالله وحده كالصلاة والصيام. وبعضها يتعلق بالعباد وحدهم كالمعاملات من البيع والشراء والوديعة والدين وما أشبه ذلك - وبعضها يتعلق بالله وعباده كإخراج الزكاة - فإن فيها حقا لله وحقا للعباد - وبعضها يتعلق بالإنسان نفسه. فالبدن ليس ملكا للإنسان فليس له أن يتلفه أو يكلفه ما لا يطيق: «**فإن لبدنك عليك حقا. وإن لربك عليك حقا. وإن لزوجك عليك حقا. فاعطى كل ذى حق حقه**». ومن قواعد الدين أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان... وذلك من يسر الإسلام وسماحته.

وما بعث الله نبيا إلا وهو أمين على ما كلفه الله بتبليغه والعمل به. فلو كان خائنا لكتم من هذه الرسالة شيئا. وحينئذ لا يكون أهلا لتحمل الأمانة... وبحسبك أن رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلقبه قومه قبل البعثة بالصادق الأمين. ومن هنا فإنه بلغ أمانة الله إلى الناس ولم يكتم شيئا مما أنزله الله عليه. قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: " من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزله الله إليه فقد كذب. ولو كان محمدٌ كاتما شيئا لكتم قوله تعالى: **{وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}**[1] وكما كان صلى الله عليه وسلم أمينا على رسالة ربه كان أمينا على ودائع الناس. فحينما أراد صلى الله عليه وسلم الهجرة من مكة إلى المدينة كلف ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يؤدى الودائع إلى أربابها بعد أن يهاجر. أما بنوا إسرائيل فحينما علموا أنهم سيهاجرون مع موسى عليه السلام استعاروا بعض الحلى من جيرانهم المصريين وخرجوا بها. ولما أرادوا أن يتخلصوا من هذه الحلى جمعوها. وصاغ لهم السامرى منها عجلا جسدا له خوار. فقد خانوا الأمانة وحينما أرادوا أن يتوبوا عبدوها من دون الله فكفروا بالله - نعوذ

(١) سورة الأحزاب الآية رقم (٣٧).

بالله من ذلك. ولقد وصف القرآن الكريم موسى عليه السلام - كما جاء على لسان بنت الشيخ الكبير:{القَوِيُّ الأَمِينُ}. وقد حكمت عليه هذه الفتاة بالقوة لما رأت منه كيف أنه سقى لهما بهيبة وعزيمة. ووصفته بالأمانة لأنه طلب منها أن تمشى خلفه حتى لا تتلاعب الريح بثيابها إذا مشت أمامه أو إلى جواره.

وفى سورة الشعراء ذكر لبعض أنبياء الله تعالى وكيف أن كل واحد منهم كان يقول لهم:{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}... جاء ذلك على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - صلوات الله عليهم أجمعين... كما قد وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين. فهو أمين على وحى الله تعالى يبلغه إلى رسل الله كما تلقاه عن اللوح المحفوظ قال الله تعالى:{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [1]. وقال أيضا:{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [2] - والمراد هنا جبريل عليه السلام. وقبل ذلك بقليل قال الله عنه:{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [3].

ولأهمية الأمانة بمعناها الشامل جاء الأمر برد الأمانات إلى أهلها وذلك فى قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} [4]... وإذا أردنا أن نقف قليلاً مع هذه الآية فنقول: بدأت الآية الكريمة بكلمة " إن " التى تفيد التوكيد. واختير لفظ الجلالة " الله " دون سائر أسمائه الحسنى ليبعث فى النفس الضعيفة الرهبة حتى تنصاع وتحافظ على الأمانة وتردها. وجاءت كلمة " الأمانات " جمعا ولم تأت مفردة مما يدل على تنوعها وشمولها. وجاءت الآية بلفظ " يأمركم " ليكون ذلك أدعى إلى عدم المناقشة أو محاولة التأويل أو التفسير وإنما هو الأمر الذى يجب الانقياد له.. ويذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دعا عثمان بن طلحة وكان معه مفتاح الكعبة، فلما جاء قال له رسول الله: " أرنى المفتاح ". فلما مد عثمان يده بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ قال العباس عم النبى ﷺ: يا رسول الله بأبى أنت وأمى اجمعه لى مع السقاية - وكان العباس يسقى الحجيج. فأراد أن يضم ذلك إلى سدانة الكعبة

(١) سورة الشعراء الآيتان رقم (١٩٣، ١٩٤).
(٢) سورة التكوير آية رقم (٢٤).
(٣) سورة التكوير آية رقم (٢١).
(٤) سورة النساء آية رقم (٥٨).

وخدمتها وذلك بأخذ المفتاح - وهنا قبض عثمان يده على المفتاح خوفا أن يأخذه العباس. فقال النبى ﷺ: (هات المفتاح يا عثمان). فأعطاه إياه قائلا: هاك أمانة الله. ففتح النبى ﷺ الكعبة وطهرها فقد وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها ثم طرحها. ووجد صورة لإبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام[1] فقال رسول الله ﷺ: «ما للمشركين قاتلهم الله وما شأن إبراهيم وشأن القداحة». وكسر رسول الله ﷺ ذلك ومحاه وخرج من الكعبة وهو يتلو الآية الكريمة:{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}. ثم دعا عثمان بن طلحة وأعطاه المفتاح وقال: (خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا شقى)[2].

وإذا كانت الأمانة من صفات المرسلين فإنها أيضا من صفات المؤمنين. قال تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}[3]... وإذا كانت الأمانة من صفات المؤمنين فإن الخيانة من صفات المنافقين. قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا ائتمن خان»[4] وقال أيضا: «يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب»[5]. ونفى رسول الله ﷺ الإيمان صراحة على من لم يحافظ على الأمانة فقال: «لا إيمان لمن لا أمانة له». واستعاذ الرسول ﷺ من الخيانة فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من الخيانة». بل أن الرسول ﷺ أمرنا بأداء الأمانة حتى ولو كان هذا الإنسان قد خانك فقال: «أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك». لقد وصف القرآن الكريم مكة المكرمة بأنها البلد الأمين. قال تعالى:{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[6]. ومعنى وصف مكة بأنها البلد الأمين أنها حرم آمن فكأنها أمينة على من دخلها.

---

(١) الأزلام ثلاثة مكعبات من الخشب. مكتوب على واحد منها افعل وعلى الثانى لاتفعل والثالث ليس مكتوب عليه شيء. فإذا أراد إنسان أن يقوم بعمل ما أدخل يده فى كيس يجمع هذه الأزلام. فإذا خرج القدح المكتوب عليه افعل سر وافعل. وإذا خرج لا تفعل لم يفعل. وإذا خرج غير المكتوب عليه شيء أعاد ذلك مرة أخرى.

(٢) ذكر هذه القصة صاحب كتاب لباب النقول لأسباب النزول.

(٣) سورة المؤمنون آية رقم ٨.

(٤) الحديث رواه أبى يعلى عن أنس بن مالك.

(٥) الحديث رواه البزار والدارقطنى والطبرانى. والحديث رواه سعد بن أبى وقاص.

(٦) سورةالتين الأيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤).

أنواع الأمانات

ولنتحدث عن بعض أنواع الأمانات ليعلم إخواتى وأحبابى مدى عمومها وشمولها:

(١) أمانة تولى الوظائف العامة... جاء أبو ذر لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألا تستعملنى - أى تولينى عملا - قال فضرب رسول الله ﷺ منكبى ثم قال: «**يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا الذى أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها**» [١]. ذلك أن الوظيفة ليست فى نظر الإسلام وساماً يوضع على صدر الوالى. وإنما حمل ثقيل يوضع على كاهله. وسوف يسأل عن هذه الأمانة يوم القيامة. فمن حسبها مغنماً وجاهاً وتكبر على عباد الله كان ذلك خزيا وندامة. ومن قام بحقها فهو الفائز حقا... عندما تولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إمارة المؤمنين قل نومه جداً وكان يقول: لو نمت بالليل أضعت نفسى - يقصد أنه لا يقوم الليل - وإذا نمت بالنهار أضعت الرعية... وكلما كانت الوظيفة حملها أشد كان السؤال عنها أصعب... وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لو عثرت بغلة بشاطىء الفرات لوجدتنى مسؤولاً عنها أمام الله لم لم أمهد لها الطريق؟ وحينما طعنه أبو لؤلؤة وقيل لعمر: استخلف واجعل ابنك عبدالله واحدا ممن تستخلف. قال: يكفى أن يحاسب من آل الخطاب واحداً عن أمور المسلمين. وحينما استخلفه أبو بكر قال: يا خليفة المسلمين لا رغبة لى فيها. قال الصديق: لكنها لها رغبة فيك.

أين هذا من بعض الذين تولوا أمور المسلمين وأخذوا البيعة لأبنائهم بالذهب والسيف وقال: من أطاعنا فله هذا - وأشار إلى الذهب - ومن عصانا فله هذا - وأشار إلى السيف؟... ولقد قالتها امرأة لم تتخرج من جامعة ولم تدخل كتابا ولا مدرسة وإنما قالت بالفطرة لعمر وهى لا تعرفه حينما كان يتفقد أحوال الرعية قالت له: الله بيننا وبين عمر. فقال عمر: وما يدرى عمر بحالك؟ قالت: أيتولى أمرنا وينام عنا!! وأشهد أن عمر الفاروق لم ينم عن أمور الرعية وإنما كان يتعرف على حالها و يتفقد شؤونهم [٢].

(٢) من الأمانات التى ينبغى للمسلم المحافظة عليها الأسرار ومشاكل الذين استودعوها إياه. قال رسول الله ﷺ: «**إذا حدث الرجل رجلا بحديث ثم التفت – يعنى لايريد أن يسمعه أحد – فهى أمانة**». وقال ﷺ أيضا: «**إن من الخيانة أن تحدث بسر**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) عند هذا الحد وانتهى كلام الشيخ رحمه الله عن الأمانة. وحيث إنه لم يتم أنواع الأمانات فإنى أتمها بإذن الله وتوفيقه.

أخيك»... وفى إفشاء الأسرار إيغار للصدور ومنبع للكراهية. وهى من أكبر الأبواب التى يدخل منها الملعون إبليس حتى يفسد علاقة المسلم بأخيه المسلم ويهتك روابط المودة بينهما وأواصر الأخوة التى جمعهما الإسلام عليها. ومن أهم الأسرار التى يجب أن يحافظ عليها المسلم هى ما يكون بين الرجل وزوجه داخل غرف النوم. فلا ينبغى لأحد أن يتحدث بمثل هذه العلاقة لغيره لأنها أمانة وإفشاؤها من أعظم الخيانات. قال رسول الله ﷺ: «**إن شر الناس منـــزلة عند الله الرجل يفضى إلى إمرأته والمرأة تفضى إلى زوجها ثم ينشر سرها**». [1] ومن الأسرار التى ينبغى للمسلم أن يحفظها ما يراه المغسل فى الميت. فربما كان الميت صاحب عاهة فى جسده يخفيها عن الناس فى حياته خشية غمزهم لـه وعيبهم عليه. فينبغى للمغسل أن يستر عليه ذلك... وربما ظهر على الميت آثار غضب الله - والعياذ بالله - كسواد الوجه أو شابه ذلك. فيجب أيضا أن يحافظ المغسل على هذه الأسرار. قال رسول الله: «**وليغسل موتاكم المأمونون**»... [2] فسب الأموات والشماتة بهم أمر منهى عنه فى الشرع. قال رسول الله: «**لا تسبوا الموتى فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**». بل نهى الرسول عن سب أبى جهل أمام ابنه عكرمة الذى آمن بالله وبرسوله وقال فى الحديث الشريف[3]: «**إن عكرمة يأتيكم. فإذا رأيتموه فلا تسبوا أباه. فإن سب الميت يؤذى الحى ويؤلمه**».

(٣) من أنواع الأمانات أيضا الاستشارة. قال رسول الله ﷺ: «**من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه**». وكيف لا تكون الاستشارة أمانة والمستشير وضع ثقته ووفاءه فيمن طلب منه النصيحة والمشورة. والرسول ﷺ يقول: «**الـــدين النصيحة**». فمن خان النصيحة فقد خان الدين وخالف ظن أخيه المسلم به.

جاء فى السنن أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ تقول خطبنى فلان وفلان وفلان. فمن منهم تنصحنى أن أتزوجه؟ فأشار عليها بقولـه: «**فلان لايضع العصى عن عاتقه – أى يضرب زوجته – وفلان صعلوق لا مال لـــه. تزوجـــى فـــلان...**» هكذا تكون الاستشارة بلا مجاملة أو محاباة لأحد أو خوف منه. ولا يمنعن المسلم أن يشير على أخيه بالحق والصدق خشية غضب الناس أو رجاء كسب ودادهم.

والمسلم حين يشير على أخيه بشيء فإن عليه أن يتحرى الصدق ولا يفتيه بالظن

(١) الحديث رواه مسلم
(٢) الحديث رواه بن ماجه
(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب

والوهم. بل بالعلم واليقين حتى يكون أهلا لهذه الاستشارة. وصدق رسول الله ﷺ القائل: «المستشار مؤتمن». وقال أيضا ﷺ: «الاستشارة أمانة».

ومن الأمانة كذلك صدق الحديث فيما يرويه المسلم أو يحدث به غيره. قال رسول الله: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب» [١]. لذلك أمر الإسلام المؤذن أن يكون أمينا وتتمثل أمانته فى ضبط ودقة أوقات الآذان لأن الناس تضع ثقتها فيه فتصلى حسب آذانه. وتفطر فى رمضان عند سماع صوته فى آذان المغرب.. وهكذا. قال رسول الله: «المؤذن مؤتمن»... فهو مؤتمن لأن الناس تصدقه. فإن خالف ظنهم به وقصر فى مهمته فقد خانهم.

(٤) البيع والشراء والتجارة أيضا أمانة. ولو علم التاجر أن بضاعته التى يأخذها منه الناس أمانة. وأنه مسؤول عنها أمام الله إن هو خانهم وغش سلعته لما رأينا أحدا يشتكى الحاجة والعوز، ولنعم الجميع بحياة ملؤها الثقة والإخاء والتعاون والرحمة. قال رسول الله ﷺ: «إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا. وإذا وعدوا لم يخلفوا. وإذا اؤتمنوا لم يخونوا».

ولخطورة الغش التجارى أنزل الله فى القرآن سورة كاملة باسم المطففين الذين ينقصون الوزن ويكثرون الغش. وقد بدأها بقوله{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}[٢].

ولقد اشتهر قوم مدين بهذه الصفة الحقيرة وهى الغش وتطفيف الكيل. فأرسل الله إليهم نبيه شعيباً عليه السلام الذى جادلهم وناقشهم وقدم لهم النصيحة. قال تعالى:{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} [٣].

وإذا كانت التجارة مشاركة بين اثنين أو أكثر فعلى المسلم أن يحافظ على مال شريكه كما يحافظ على مال نفسه. قال تعالى فى الحديث القدسى: «أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه»[٤]... وعاب نبى الله داود عليه السلام على الشريك الخائن فقال: «وإن

---

(١) رواه أحمد

(٢) سورة المطففين. الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤، ٥).

(٣) سورة هود. الآية رقم (٤٨).

(٤) رواه أبو داود.

كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»[1].

(٥) ومما لاشك فيه أن أثقل شيء فى الأمانات هى الودائع التى يعطى صاحبها ثقته فيمن ائتمنه عليها مثل المال أو المخدرات أو ما شابه ذلك. نقول إن هذا النوع من أصعب الأمانات لأن النفس البشرية جبلت على حب التملك والطمع. وعلى ألا يتميز عليها أحد أو يفوقها بشيء

قال ابن مسعود رضى الله عنه: (يؤتى يوم القيامة بصاحب الأمانة التى خان فيها فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أنّى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ قال فتمثل له كهيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم ثم يقال له: انزل إليها فأخرجها. قال: فينزل يجمعها على عاتقه - وهى أثقل عليه من جبال الدنيا حتى إذا ظن أنه ناج هوت وهوى فى أثرها أبد الآبدين: ثم قال: الصلاة أمانة. والوضوء أمانة. والغسل أمانة. والوزن أمانة. وأعظم ذلك الودائع)[2].

قال تعالى:{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}[3].

وأخيرا نحب أن نبين عاقبة الخائنين حتى يكونوا عبر وعظة لغيرهم. قال تعالى..

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}[4].

{وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ}.[5] وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له».[6]: «يطبع المؤمن على كل خلله إلا الكذب والخيانة».[7] أسأل الله أن ينفعنا بما علمنا... وأن ينفع بما علمنا غيرنا.

* * * * *

(١) سورة ص الأية رقم (٢٤).
(٢) الكبائر للذهبى.
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة الحج. الأية رقم (٣٨).
(٥) سورة يوسف. الأية رقم (٢٢).
(٦) رواه أحمد.
(٧) رواه البزار وأبو يعلى ورواته رواة الصحيح.

من أخلاق المؤمنين:

الرضا

{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}

obeikandl.com

الرضا

خلق الرضا هو خلق يجب أن يتخلق به المؤمن. والمؤمن الراضى يعيش مطمئن القلب مرتاح البال. ذلك أن الخير والشر يستويان عنده لأنهما من قضاء الله عز وجل. فيشكر على السراء ويصبر على الضراء... بعكس الساخط الذى يعبد الله على حرف فإن أصابته سراء فرح. وإن أصابته ضراء دجر وسخط. وهذا ليس من طبع المؤمنين الصادقين.

وليعلم الناس جيداً أن رضا الله عز وجل عن عبد ثواب لرضا العبد عن ربه. فإذا رضى العبد عن ربه ولم يسخط ولم يشك رضى الله عز وجل عنه. قال تعالى:{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ} (١). وقد وردت مادة الرضا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم... قال تعالى:{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ} (٢). وقال تعالى:{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} (٣). ومثل ذلك فى سورة المجادلة وفى سورة البينة (٤)... والذى نلاحظه فى هذه الآيات أن هناك ارتباطا بين رضا العبد عن ربه ورضا الله عز وجل عن عبده{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}.

فرضا العبد عن ربه يتمثل فى الرضا فى جميع ما أمر به ولو كان مخالفا لطبيعة النفس. والرضا عن كل قضاء وقدر ولو كان مؤلما للنفس. والرضا الأول يسمى(الرضا بالألوهية). والرضا الثانى يسمى (الرضا بالربوبية)(٥). فهؤلاء الذين يضيقون بصلاة الفجر لأنها تأتى والجو بارد وفيها ترك للفراش الدافىء الوسير ينقصهم الرضا بألوهية الله. والذين يضيقون بصوم رمضان إذا جاء فى فصل الصيف حيث تجف الشفاه وتيبس

---

(١) سورة الرحمن. الآية رقم (٦٠).

(٢) سورة المائدة. الآية رقم (١١٩).

(٣) سورة التوبة. الآية رقم (١٠٠).

(٤) آية سورة المجادلة هى: رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله - الآية رقم (٢٢). وآية سورة البينة هى قوله تعالى:{جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} الآية رقم (٨١).

(٥) قيل أن موسى سأل ربه أن يدله على عمل إذا عمله رضى عنه. فقال الله له: إنك لاتطيق ذلك. فخر موسى ساجدا. فأوحى الله إليه: يا ابن عمران.. إن رضائى فى رضاك بقضائى - الرسالة القشيرية.

الألسنة ليسوا راضين بألوهية الله عز وجل... وهكذا فالرضا بالألوهية يظهر فى الرضا بجميع الأوامر والنواهى. والذين يضيقون بقضاء الله وقدره فى فقد عزيز أو فى المرض أو الفقر أو ما أشبه ذلك ينقصهم الرضا بالربوبية... فأقدار الله عز وجل لصالح عباده كما ورد فى الحديث القدسى: «أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعيب». وقال عز من قائل:{وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (١).

فرضا العبد عن ربه سبحانه وتعالى هو مضمار الإيمان. قال تعالى:{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} (٢). وقال تعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً} (٣). وقال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا» وفى رواية أخرى: «من قال كل يوم: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا(٤). كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة».

ورضا الله يوم القيامة أفضل من الجنة وما فيها من حور وقصور وأشجار ونعيم مقيم. قال تعالى:{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}. فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة. بل هو غاية سكانها - جعلنا الله منهم - وفى حديث شريف ما معناه: «إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول: سلونى. فيقولون: رضاك» - وفى رواية: «فيتجلى لهم يقول: أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل إكرامى فسلونى. فيسألونه الرضا». وفى حديث قدسى ما معناه: «أن الله يسألهم: هل أنتم راضون عنى كما أنا راض عنكم؟ فيقولون: وما لنا لانرضى وقد أنجيتنا من النار وأدخلتنا الجنة. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من هذا؟ فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أصل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا». يقول بعض المفسرين فى قوله تعالى{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}: يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب

(١) سورة البقرة. الآية رقم (٢١٦).
(٢) سورة النساء. الآية رقم (٦٥).
(٣) سورة الأحزاب. الآية رقم (٣٦).
(٤) الحديث رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب.

العالمين: إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها. فذلك قوله تعالى:{فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[1]... والثانية: السلام عليهم من ربهم - فيزيد بذلك على الهدية فضلا - وذلك قوله تعالى:{سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}[2]... والثالثة: يقول الله لهم: إنى عنكم راض - ويكون ذلك أفضل مما سبقه - وذلك قوله تعالى:{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}. وورد الرضا فى عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ. نذكر منها:

سأل رسول الله ﷺ طائفة من أصحابه: «ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقلوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة»... وفى خبر آخر قال: «حكماء علماء كادوا بفقههم أن يكونوا أنبياء).

قال ﷺ: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه. فإن صبر احتباه. فإن صبر اصطفاه». وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء. أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا».

ولنعلم جميعاً أن ما يقدره الله لعبده فيه الخير لا محالة ولو لم نَرَ نحن ذلك. فعيوننا قصيرةٌ ولا نعلم إلا مابينا أيدينا. أما ربنا فهو وحده الذى يعلم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون وهو علام الغيوب... يروى أن رجلا كان له كلب وحمار وديك. فالديك يوقظ الرجل وأهله للصلاة. والحمار يحمل متاعهم. والكلب يحرسهم. فجاء ثعلب وأكل الديك فحزنوا لفراقه. ثم جاء ذئب وبقر بطن الحمار فحزنوا أكثر. ثم أصيب الكلب بعد ذلك. فقال الرجل: عسى أن يكون ذلك خيرا لنا. ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا حولهم فإذا قد سبى من حولهم وبقوا هم! ولما سأل عن السبب قيل له: إن أصوات حيواناتهم دلت أعداءهم عليهم. فحمد الله على موت الديك والحمار والكلب... فلولم يموتوا وتعالت أصواتهم لأغار أعداؤهم عليهم.

وروى أن سعد بن أبى وقاص أتى مكة. وكان قد كف بصره وكان مستجاب الدعوة وجاء الناس يهرعون إليه وكل واحد منهم يسأله أن يدعو له. قال عبدالله بن السائب:

---

(١) سورة السجدة. الآية رقم (١٧).
(٢) سورة يس. الآية رقم (٥٨).

فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفنى وقال: أنت قاريء أهل مكة؟ قلت: نعم. قال: فقلت لـه يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فيرد الله عليك بصرك؟! فتبسم وقال: قضاء الله سبحانه وتعالى عندى أحسن من بصرى. ونسأل: هل يتنافى الرضا مع الإحساس بالألم؟ بمعنى أن الله عز وجل إذا ابتلى إنسانا ما ببلاء فأحس بالألم من هذا البلاء - كالإحساس بالألم عند المرض. والإحساس بالألم عند فقد الأحباب - هل الإحساس بذلك يتنافى مع الرضا؟... والجواب: لا. لأن الرضا عمل من أعمال القلب والألم يتعلق بالجسم. وقد يرضى الإنسان وهو مع ذلك يتألم - كالمريض الذى يخبره الطبيب أنه لابد من إجراء عملية جراحية لـه حتى يشفى. وأن هذه العملية هى الطريق الوحيد للتخلص من هذا المرض - فالمريض ولا شك راض بذلك بقلبه وعقله وإن كان يتألم بجسمه...

والصائم الذى يصوم فى يوم شديد القيظ يشعر بألم الصيام. ومع ذلك فهو راض عن صومه لأن فيه مرضاة الله... والمجاهد الذى يحس بألم الضرب والطعان وما أشبه ذلك راض بذلك ابتغاء مرضاة الله. قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء. وفقدان المرارة بعد القضاء. وهيجان الحب فى حشو القضاء... وقال الحسين بن على رضى الله عنه: من اتكل على حسن اختيار الله لـه لم يتمن عند اختيار الله لـه.

ونسأل أيضا: هل الدعاء يتنافى مع الرضا؟ بمعنى أن الإنسان لو نزلت به كارثة مثلا فهل من الرضا عدم الدعاء بكشفها؟ والجواب: لا. فالدعاء هو العبادة أو مخ العبادة. وكان رسول الله ﷺ فى قمة الرضا ومع ذلك كان لا يمل الدعاء. فهو القائل ما معناه: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر. وأعوذ بك من عذاب القبر». وهو القائل ما معناه: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن. وأعوذ بك من العجز والكسل. وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». وأدعية كثيرة مأثورة عنه ﷺ وهى لا تتنافى مع الرضا... وقد أثنى الله على بعض عباده بقولـه تعالى:{وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}.

ونسأل ما الذى يتناقض مع الرضا؟

(١) مما تتناقض مع الرضا الحقيقى الرضا بالمعاصى والفجور بزعم أن ذلك قضاء الله وقدره. وهذا فهم خاطيء ورضا مقلوب ولقد ذم الله أمثال هؤلاء فى قولـه

تعالى:{رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [1] - وذلك فى شأن الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقال:{وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا}. وقال رسول الله ﷺ: «من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها. ومن غاب عن معصية وأحبها فكأنما حضرها» والراضى بفعل قوم كالداخل معهم فيه... والنصوص كثيرة فى كراهية أصحاب المعاصى حتى يتوبو إلى ربهم وقال تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ}. وقال:{لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [2].

(٢) مما يتناقض مع الرضا الشكوى إلى الناس مما حل به من مرض أو فاقة دون داعٍ يعتبر. كالشكوى من ظالم إلى من يستطيع أن يدفع الظلم أو الشكوى من ألم لمن يعرف كيف يداوى هذا الألم مثلا. أما الشكوى التى لافائدة منها فهى تنافى الرضا. ولنتعلم من رسول الله ﷺ كيف كانت شكواه إلى ربه حين قال فى مناجاته عند عودته من الطائف: «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس». وشكوى يعقوب نبى الله عليه السلام حين قال:{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [3]... والمراد بالشكوى التى تنافى الرضا هى الشكوى مع الجزع وعدم الصبر. ولنذكر بعض أسرار الرضا ولماذا كانت له هذه المنزلة. فنقول - وبالله التوفيق - من أسراره ما يأتى:

أن الراضى عن الله واقف مع اختياره عز وجل يبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. فهو على يقين قلبى أن ما يريده الله له يكون دائماً خيراً من اختياره. يروى أنه اجتمع كلا من سفيان الثورى ووهيب بن الورد ويوسف بن أسباط. فقال الثورى: قد كنت أكره قبل اليوم موت الفجاءة. أما اليوم فوددت أنى ميت. وقال يوسف: ولكنى لاأكره طول البقاء. فقال الثورى: ولم تكره الموت؟ فقال: لعلى أصادف يوما أتوب فيه إلى الله وأعمل عملاً صالحاً. فقيل لوهيب: أى شىء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئا. أحب ذلك إلى أحبه إلى الله. فقبله الثورى بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة. أول معصية عصى بها الله فى هذا العالم إنما نشأت عن عدم الرضا فإبليس عليه اللعنة لم

(١) سورة التوبة. الآية رقم (٩٣).
(٢) سورة آل عمران. الآية رقم (٢٨).
(٣) سورة يوسف. الآية رقم (٨٦).

يرض بحكم الله حيث فضل آدم عليه. ولم يرض بأمر الله حيث أمر بالسجود لـه [1]. وآدم لم يرض بما أتيح لـه فى الجنة حيث ضم إليه الأكل من الشجرة ووسوسة إبليس وأنه خدع بقسمه ونصحه -{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [2]. وأن قضاء الله سبحانه وتعالى مما يكرهه المرء لا يخلو إما أن يكون عقوبة على ذنب. أو يكون سببا لنعمة لا تنال إلا بهذا المكروه... فإن كان عقوبة على ذنب فهو بمثاب الدواء. على العاقل أن يرضى بالدواء لأنه سبب الشفاء. فالعقوبة تمحو الذنب حتى يلقى الله طاهرا مطهرا - وهذا ولا شك فى صالح العبد.

وإن كان سببا لنوال نعمة لا تنال إلا به فينبغى أن يكون ذلك محل رضا. لأن المكروه يتلاشى وتبقى النعمة بعد ذلك. وقصة سيدنا موسى والخضر شاهدة على ذلك. فخرق السفين وقتل الغلام وإقامة الجدار فى ظاهرها أمور ضارة. ولذلك أنكرها الكليم عليه السلام عليه. ولكن بعد أن فسر الخضر ذلك اتضح أن الخير فيما فعل. الرضا يثمر سرور القلب ويذهب عنه الهم والغم. فالراضى شعاره قول ربه:{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} لأن ما فات قد يكون فى حقيقته شرا فالحمد لله على فواته - ولأن ما جاء قد يكون كذلك فى حقيقته شرا فلا ينبغى أن نفرح وحينما جاء الذى عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس قال سيدنا سليمان عليه السلام: «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر» [3]. فلم يفرح بمجيء العرش قبل أن يرتد إليه طرفه لأن ذلك قد يكون ابتلاء من الله. وهذا شأن الراضين أنهم يفوضون الأمر كله لله ويختارون ما يختار الله لهم. ولذلك كان بعضهم يتحرج أن يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد أو الفقر بلاء والعيال هم. ولا يسمى شيئا قضاء الله وقدره اسما مذموما إذا لم يذمه الله.

قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لى سرور لأنى بواقع القدر... وقال ابن مسعود: الفقر والغنى مطيتان لا أبالى أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل... وقال أحد الصالحين: وددت أن الليل أطول مما هو عليه الآن

---

(١) قال تعالى حاكيا عن رفض إبليس لأمر الله: قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين - سورة الأعراف. الآية رقم (١٢).

(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٢١)... وكانت نتيجة أكله من الشجرة هو وزوجه قول الله تعالى: قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين - سورة الأعراف. الآية رقم (٢٤).

(٣) سورة النمل. الآية رقم (٤).

لأزداد من الصلاة فيه. فعلق على كلامه أحد الذين بلغوا فى الرضا مقاماً سامياً فقال: أحسنت وأسأت. قال: كيف ذلك؟ قال: أحسنت حيث تمنيت طول الليل للعبادة والمناجاة. وأسأت حيث تمنيت ما لم يرده الله وأحببت ما لم يحبه الله. وقال رجل لامرأته: لأشقينك. فقالت لا تستطيع إن سعادتى فى إيمانى. وإن إيمانى فى قلبى. ولا سلطان لأحد على قلبى إلا الله... وفى أثر قدسى: «أنا الله لا إله إلا أنا. قدرت المقادير. ودبرت التدابير. وأحكمت الصنع. فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى. ومن سخط فله السخط حتى يلقانى»... ولله در القائل:

العبد ذو ضجر والــرب ذو قــدر ::: والدهر ذو دول والرزق مقســوم
والخير أجمع فيما اختــار خالقنــا ::: وفى اختيار سواه اللــوم والشــوم

ومن مساوئ السخط وعدم الرضا...

أن الشيطان لا يتمكن من الإنسان تمام التمكن إلا إذا سخط. فالإنسان الساخط يقول ما لا يرضى الله ويفعل ما لا يرضى الله وينوى ما لا يرضى الله. وتلك كلها وسائل يتمكن بها الشيطان من الاستيلاء على الساخط ويضخم له سخطه. وينفخ فى الرماد إذا هدأ قليلاً أو رضى قليلا ليعود إلى سخطه مرة ثانية. ولذلك نرى رسول الله ﷺ حين وفاة ابنه إبراهيم ما معناه: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا. وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون». فرسول الله ﷺ اتسع قلبه الكبير للرضا بقضاء الله وللرحمة بفقد الابن. والبكاء لا ينافى الرضا... فهذه رحمة وضعها الله فى قلب من يشاء من عباده. أن السخط يستدعى عدم ثبات العبد مع ربه فى جميع حالاته شأن الراضين. فالساخط إذا أصابته ضراء ضجر ولم يصبر وفى ذلك سخط على القدر كما قال ربنا: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ}. أنظر إلى من مات له حبيب ولم يكن من الصابرين فربما لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية. ولقد أخرج النبى ﷺ هذا من زمرة المؤمنين: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيــوب ودعــا بــدعوى الجاهلية». وفى حديث قدسى ما معناه: «من لم يرض بقضائى ويصــبر علــى بلائــى فليخرج من سمائى وليعبد ربا سواى» [1]... فالسخط كما يقول بن القيم: ينزع القلب من

(١) حديث ضعيف.

الله. والرضا يفرغ القلب لله.

السخط يفتح باب الشك فى الله - والعياذ بالله - فالساخط على قضاء الله معترض على حكمته وعلمه. فالرضا واليقين إخوان. والسخط والشك شيطانان مقترنان. روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «**إن استطعت أن تعمل بالرضا واليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا**». [1] وبالجملة فالساخط مخاصم لربه معترض على مولاه. وكان من دعاء الرسول ﷺ ما معناه: «**اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك ماض فِيَّ حكمك. عدل فِيَّ قضاؤك...**» فنواصى الخلق بيد الخالق. وأحكامه ماضية. وقضاؤه قضاء عدل... فأين موقع الساخطين من ذلك؟ ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

ومن الآيات التى تدل على الرضا بالله...

قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباًّ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [2].

قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [3].

قال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً} [4].

فالآية الأولى... تدل على الرضا بالله ربا وسيدا وإلها.

والآية الثانية... تدل على الرضا بالله معبودا مطاعا محبوبا.

والآية الثالثة... تدل على الرضا بالله حكما. والله أعلى وأعلم

* * * * *

(١) حديث شريف رواه ابن عباس عن رسول الله.
(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (١٦٤).
(٣) سورة الأنعام. الآية رقم (١٤).
(٤) سورة الأنعام. الآية رقم (١١٤).